الإعجاز القرآني في توجيه السلوك الإنساني

أ.د. عابد توفيق الهاشمي

المقدمة:

تتجلّى عظمة الإعجاز القرآني والنبوي في خلق الانسان في أحسن تقويم خلقاً يصدر عنه السلوك المنّوع الذي يتعامل به مع الحياة، ويشيد حضارتها من خلال سلوكه مع ربه ومع نفسه ومع أسرته، ومع أمته، ومع الناس أجمعين.

هذا السلوك المعجز البناء نابع من عاملي الوراثة والبيئة، وهو خاضع لإرادة ربّ العالمين.

إن هذا السلوك الإنساني من (قول وفعل)، ثمرة عوامل ثلاثة:

أولها: الفطرة التي فطر الناس عليها، وهي واحدة للجنس الإنساني ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ الروم: ٣٠، مع الاعتراف بالفروق الفردية التي تشير اليها الآية الكريمة ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ الإسراء: ٨٤، أي على ما شاكلها الله من هذه الفروق الفردية، ولولاها لما تنوعت الاختصاصات والمواهب، ولجمدت الحياة، علما أن هذه الفروق موروثة عن الأبوين أو الطفرة الوراثية التي أودعها الخلاق العليم في الجينات الموروثة الكامنة في الكروموسومات الذكرية والأنثوية، بمجموع (٤٦) التي تميز الجنس الإنساني عمن سواه.

وثانيها: البيئة، ابتداء ببيئة الجنين في الرحم، ثم بيئة الطفل مع أمه في مرحلتي الفصال والحضانة، ثم بيئة الأسرة – الأبوين والإخوة والأخوات والأقارب والجيران والأصدقاء، وبيئة الرياض والمدارس والكليات، وبيئة المجتمع – بغثّه وسمينه، وبيئة الإعلام ووسائله المنوعة من كتب ومجلات وصحف وإذاعة وتلفاز وكمبيوتر وإنترنت – بمحاسنه وسيئاته، وجميع البيئات المؤثرة في السلوك من سياسة واقتصاد وعواطف، بما تشمل أطوار النمو جميعها: (الطفولة والمراهقة والشباب والكهولة والشيخوخة) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ نوح: ١٤، ليكتمل بهذه الأطوار (المراحل) خلق الإنسان الكريم.

وثالثها: الإرادة الإلهية الحكيمة، في تسيير الكون وإخضاعه لأمره، وهي إرادته التي تحكم توجيه الإنسان من خلال قوانين الوراثه (الفطرة) التي تتجاوب مع قانونه

ومنهاج حياته، الذي أنزله في كتابه الكريم وسنة رسوله المربي، كما نزلت به جميع الأنبياء من قبله ليسير البشر بنهجه بما ينسجم مع طبيعة الخلق، إذ هو الخالق الهادي ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يوسف: ٤٠، وهذا الدين هو الفطرة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ الشعراء: ٧٨، وإنما هديه ضمان للحياة السعيدة المستقرة الكريمة ورفضه شقاء وعذاب في الدارين ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ طه: ١٢٣، أي لا يضل عقله ولا تشقى نفسه، ففيه سلامة العقل وسعادة النفس.

أما القضاء والقدر فهو الذي يمثل إرادة الله، التي تحكم ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ الرعد: ٤١، وهو خير من الله للمؤمن وجزاء عدل للمنافق، ومن غير إكراه لله على أمر. هذا وإن الدعاء الصادر من القلب الخاشع ليصطرع مع القدر بين السماء والارض ويغلب الدعاء القدر رحمة من الله بعباده الصادقين، كما في الحديث الصحيح.

أهمية البحث: تبرز أهمية البحث في الالتجاء إلى الله، واستيعاب منهاجه الحياتي، ودقة العمل به، واستحضار رقابته في كل حين، والمحاسبه المستمرة والإحسان في خدمة الناس، والتحلل من جميع ألوان العصبيات وسورات الغضب،... وكلها ثمرة منهاج الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الأنفال: ٢٤، الذي يظهر حكمة الله في خلق الإنسان نفسه المتجاوب مع هديه، بما يزرع الفهم الخاطئ في إلقاء الملامة على الله في انحرافات الإنسان السلوكية، وإعذار الإنسان نفسه من تبعة هذا الانحراف، بما يؤدي إلى استمراره في الضلال والاحتلال، وهو أخطر مايواجه البشرية اليوم.

ثم إن أهمية البحث تظهر الصحة النفسية للمؤمن المستسلم إلى منهاج الله وقدره ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ الأنعام: ٧١. كذلك فإن هذا البحث يوضح الإعجاز القرآني في الجمع بين الوراثه والبيئة وحكمة الله في الخلق بإطار علمي منطقي متماسك، ندر من أحسن التوفيق بين هذه العوامل الثلاثة في سلوك الإنسان.

منهج البحث وإشكالياته: سلكت في كتابة هذا البحث المنهج النظري من خلال دراسة النصوص القرآنية والنبوية الصحيحة، وتحليلها الدقيق، إذ هو المنهج الإلهي الذي سنه للمؤمنين ولجميع البشر كما استأنست برأي العلماء والدارسين في ميدان السلوك الإنساني، وإن هذا المنهج مقبول لدى كل مؤمن ملتزم، لا إشكاليات فيه.

الدراسات السابقة: لم أجد في الدراسات القديمة والحديثة من تناول هذا الموضوع بهذا الشمول والتناسق بين الوراثة والبيئة والإرادة الإلهية الحكيمة، ولكن الحديث عن القضاء والقدر وأثره في السلوك تناولته كتب العقيدة والتصوف النقي، كل من زاويته الخاصة، أما الجمع بين محاور البحث الثلاثة وأثرها في السلوك، فلم أقرأ كتابا فيه، كما لم أسمع بكتاب في هذا المجال ، غير أن جل اعتمادي في البحث هو (كتاب الله وهدي رسوله)، وتحليلي لنصوصهما، والربط بينهما بما انتهى إلى استكماله، مع رجوعي إلى بعض المصادر الثانوية، والمذكورة في المصادر والمراجع، لذا فإني أعد هذا البحث في هذا الشمول بحثا أصيلا غير مسبوق إليه، والفضل لكتاب الله وهدي رسوله ﷺ.

المبحث الأول

الإعجاز في أثر العوامل الوراثية الفطرية في السلوك الإنساني

للعوامل الوراثية الفطرية آثارها في سلوك الإنسان، عموماً، وعلى فروقه الفردية خصوصًا.

أما أثر الوراثة في إنسانية الإنسان النوعية فهي التي تميزه عن غيره من الحيوان في تركيبه وخصائصه التي تمثل (النوع الإنساني)، والذي يتمثل بعدد الكروموسومات (٤٦) المشتركة فيه، كما يشترك بمحاوره الخمسة المعروفة (الروح، النفس، العقل، القلب، الجسد) التي تركب شخصيته، ويشترك النوع الإنساني بخصائص هذه المحاور ووظائفها وأعمالها، كما يشترك بخصائص الحياة الاجتماعية، والقيم الإنسانية، والمشاعر، والسلوك الإنساني العام، ودوافعه.

إنها جميعاً تمثل أثر العوامل الوراثية الفطرية التي تخلّد الإنسان في بيان نوعه بين سائر المخلوقات، ومن خلال هذه العوامل الفطرية للجنس الإنساني، يخاطب القرآن الكريم: (يا أيها الإنسان)، و(يا أيها الناس) في عشرات من نصوصه، تنبيهاً للجنس الإنساني إلى ما ركب فيه من فطرة مودعة في كيانه تستجيب لهذا النداء الرباني.

وباستقصاء دقيق لنصوص هذا النداء، تستبين لنا خصائص الفطرة الإنسانية النوعية فيها، لذا أحيل القاري الكريم إلى هذا النداء القرآني، لتتضح له من خلاله هذه الخصائص، فلا يبقى بعد ذلك للإنسان حجة على الله، لأنه عز وجل ناداه من خلال ما ركّب فيه من خصائص تتجاوب مع ما يريده منه وما يوجهه إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩﴾ الانفطار: ٦ - ٩ وليس المجال متسعاً لشرح ذلك، بسبب ضيق المقام.

أما أثر العوامل الوراثية الفطرية في الفروق الفردية فهي التي تختلف فيها الأفراد من مواهب وغرائز وقابليات إذ إن الناس ليسوا سواء في كل شيء، إذن لجمدت الحياة ولم تتنوع، لذا فإن اختلاف الناس مرجعه إلى اختلاف الفروق الفردية التي يرثونها عن الآباء والأمهات، وعن الأجداد، ولولاها لما قامت حضارة، ولا تسابق الناس فيما فطروا عليه من اختصاصات لهذا يقول الإمام علي رضي الله عنه: «لو تساوى الناس لهلكوا».

يقرر هذه الحقيقة القرآن الحكيم بقوله: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ الإسراء: ٨٤، ويؤكدها حديث النبي المربي: (اعملوا، فكل ميسر لما خُلق له)[1]، فكل إنسان يعمل تجاوباً مع ما خلقه الله – شاكله وصاغ شكله وكيانه– لذا فهو ميسّر لما خلق له من مواهب فطرية وقدرات واستعدادات، ولا يكره الإنسان على عمل غير موهل له فطرياً، فهذا ميكانيكي، وهذا شاعر، وهذا خطيب، وذاك موسيقي والآخر خطاط، وغيره رسام، وذاك مغنّ وذلك نحّات، وبناء ومهندس ومخترع، كل في اختصاص معين، وهناك طبيب وجراح ومدرس وطيار وبحار....إلخ.

إن هذه الفروق الفردية تنحدر عن الأبوين اللذين اختلط منيّ الرجل (نطفته) المتكونة من (٢٣) كروموسوماً، ببويضة المرأة (٢٣) كروموسوماً، بمجموع (٤٦)، والتي يسمي القرآن اجتماعهما (بالأمشاج)، والتي تحمل كل منهما الصفات الوراثية، أحياناً للجنين عن والديهما، كما تنحدر هذه الفروق الفردية عن الأجداد – بالطفرة الوراثية.

أتى أعرابي إلى رسول الله (ﷺ) فقال له: ''يارسول الله، وُلد لي ولد غلام أسود، فقال (ﷺ): ''هل لك من إبل''؟ قال: نعم، قال: ''فما لونها''؟ قال: حُمر، قال: ''هل فيها من أورق''؟ قال: إن فيها لورقا، قال: ''فأنى ترى ذلك جاءها''؟ قال: يا رسول الله لعل عرقا نزعه، قال (ﷺ): ''لَعل هذا أيضاً نزعه عرق''(أخرجه البخاري)، أو كما قال (ﷺ)، وهذه إشارة واضحة إلى أثر الوراثة للأبوين في النسل، وأثر الطفرة في قانون الوراثة المعاصر. وأثر العوامل الوراثية مشترك بين الإنسان والحيوان، حسب قانون الوراثة الذي اكتشف كثيراً منها (مندل) وغيره.

ويبين النبي الصادق (ﷺ) بعض معالم الطفرة، بقوله: ''إذا علا ماء المرأة ماء الرجل اشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه''(أخرجه مسلم)، لأن في كل من ماء الرجل والمرأة صبغات (كروموسومات) تحتوي مورّثات (جينات) تختلف من إنسان لآخر، إذا غلبت تظهر خصائصها وآثارها في المولود، والجنين قبل أن يكون مجسمًا

[1] متفق عليه، وفي رواية مسلم زيادة: (ثم قرأ: فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى.. فسنيسره لليسرى) فجمع هذا الحديث النبوي بين عاملي الفطرة الوراثية والبيئة في السلوك، أي أنه ثمرتهما.

بأعضائه وصفاته كان صبغية (كروموسومية) وموروثية معينة، فهو (٤٦ كروموسوماً) تحتوي عدداً كبيراً من الموروثات (الجينات)، تتوزع عليها بصيغة تختلف من إنسان إلى آخر، وهذه الموروثات (الجينات) الموجودة فطرياً في الكروموسومات، وجدت كلها في آدم (عليه السلام)، ثم أخذت تتوزع في ذريته، وتشبيهها كقرص التلفون الذي يحتوي (١٠) أرقام فقط، نكلم من خلالها من نشاء في العالم، فهواتف العالم كلها موجودة فيه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ الأنعام: ٩٨، و في الخلايا الجنسية موروثات، كل منها يتفرّع من ذرية آدم، (عليه السلام)، والله تعالى قد أحاط علماً بخلقه:﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ الطلاق: ١٢، وهي تنتقل من مستقرها في الأصلاب إلى مستودعها في الأرحام، إنها رحلة طويلة لا نهاية لها، ولكنها مقدرة ومعلومة في كل مراحلها وأطوارها، ومبرمجة بدقة متناهية، من قبل العليم الخبير: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ الرعد: ٨ - ٩.

ويتوسع النبي (صلى الله عليه وسلم) في بيان أثر الوراثة في مجال الصلاح و التقوى: ''تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا''[٤].

ومن نماذج الفروق الفردية الفطرية في الوراثة ما أخبر به القرآن الكريم عن الأخوين ولدي إبراهيم – إسماعيل واسحق (عليهما السلام)، بأن (إسماعيل) ولد حليماً: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ الصافات: ١٠١، وهو أبو العرب، والجد الأعلى لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، القائل: (الحلم سيد الاخلاق)[٢]، و(إسحق) ولد عليماً: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ الذاريات: ٢٨، وهو الجد الأعلى للإسرائيلين، علماً بأن كلا الأخوين أبوهما واحد، ولعل الأب إبراهيم (عليه السلام) قد جمع في ذاته بين الحلم والعلم حتى استحق أن يكون خليلاً للرحمن ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ النساء: ١٢٥، وإن الوراثة من الاب الواحد تتنوع، أو يمكن أن يكون لاختلاف أمهما (سارة) و(هاجر) أثر في هذه الفطرة الوراثية، رغم أن الحلم والعلم لا يكتسبان عادة وراثياً، إلا إستثناء بالحكمة الإلهية، وإنما يكونان بأثر البيئة عادة: ''العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحرّ الخير يُعطه، ومن يتوقّ الشر يوقه''(متفق عليه).

[٢] متفق عليه، ويؤكده الحديث الآخر: (الناس كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام، إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف).

الإعجاز في: أثر الوالدين الوراثي في السلوك

لكل من الوالدين أثر واضح في نسلهما، إذ للأب أثره في الكروموسومات الـ(٢٣) المودعة في نطفة الرجل، وللأم أثرها في الكروموسومات الـ(٢٣) المودعة في بويضة المرأة كما ذكرنا، وإن تطابقت العوامل الوراثية لكل من الأبوين، كانت النتائج باهرة، وقد جمع الحديث النبوي بين عاملي البيئة والوراثة بقوله (ﷺ): ''الناس معادن، والعِرق دساس، وأدب السوء كعرق السوء''[٣].

أولاً: أثر الأم في الوراثة:

هو أثر واضح كما علمنا، لذا يوصي النبي الزوج بانتقاء الزوجة صاحبة الدين، لأنها هي التي تقدر أن تعينه على نوائب الدهر وعلى أعباء الأسرة القادمة وتربية الأجيال: (تنكح المرأة لأربع – لمالها وجمالها وحسبها ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)[٤]، و يؤكد (ﷺ) هذا المعنى: ''لا تزوجوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تزوجوهن لأموالهن، فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل'' (متفق عليه)، ويوضح النبي الحكيم أن الزوجة الصالحة هي الكنز الحقيقي، وهي خير ما في الدنيا: ''إن الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المراة الصالحة''[٥]، ذلك أن جمال الوجه والجسد له أثره المؤنس للرجل، غير أنه يكون أمراً إعتيادياً، حين يخوض الزوجان في غمرة الأولاد ومشاق الحياة، وللجمال أثره الوراثي كذلك، الصوري والخلقي الذي يورث.

وحين اختيار الزوج لزوجته عليه أن يحسن الاختيار والانتقاء، لأثر الأم البالغ في سلوك النسل الفطري.

وفي هذا الاختيار أحاديث كثيرة، منها صحيح: (تخيروا لنطفكم، فإنّ العرق دساس)[٦]، ومنها ضعيف يقوي بعضها بعضاً.

---

٣ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان/ ١٠٧٣٩.

٤ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان/ ١٠٩٧٤.

٥ أخرجه ابن ماجه في سننه/ ١٨٥٩، والبزار في مسنده/ ٣٤٣٨، والبيهقي في سننه الكبري/ ١٣٧٥٤.

٦ سنن النسائي والمجتبى/ ٣٢٣٢، كتاب النكاح، وصحيح ابن حبان – كتاب النكاح، ومسند أحمد/ ٦٥٣١، ومسلم. وفي رواية ابن ماجه في سننه/ ١٩٦٨ (تخيروا لنطفكم وأنكحو الأكفاء وأنكحوا إليهم)، وكذا في مستدرك الحاكم/ ٢٦٨٧, والبيهقي في سنته الكبرى/ ١٤٠٦٠، الدارقطني في كتاب النكاح/ ١٩٨.

ثانياً: أثر الوالد في الوراثة:

للوالد آثاره الوراثية الفطرية في نسله، كما علمنا، لذا أوصى الرسول الزوج بالخاطب الدِّين أن يُنكح: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إن لم تفعلوا تكن فتنة في الارض و فساد كبير)[٧].

أما القول المشهور: (الولد سرّ أبيه) فليس بحديث، رغم أن معناه سليم.

ثالثاً: نسب المصطفى والوراثة:

ويكفينا دليلاً على أثر الآباء والأجداد في نسلهم في العوامل الوراثية، نسب المصطفي (ﷺ) سيد الخلق، وهو القائل: ''أنا سيد ولد آدم يوم القيامة''[٨] اذ يعتز بنسبه الطاهر الذي يحمل صفات الخير في نسبه الممتد إلى إسماعيل (عليه السلام)، عبر أكثر من ٣,٥٠٠ سنة، بقوله (ﷺ): ''إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فإني خيار من خيار''[٩].

ولقد أوضح القرآن الحكيم أثر العوامل الوراثية للآباء في نسلهم في كثير من النصوص الخاصة بالأبنياء، أهمها قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ

---

[٧] الفوائد المجموعة – الشوكاني/ ١٣٠، في الأحاديث الضعيفة – الألباني/ ٢٤.

[٨] صحيح مسلم/ ٢٢٧٨، وسنن إبي داود/ ١٤٦٧٣.

[٩] وفي سنن الترمذي/ ٣١٤٨ ورد الحديث النبوي بكامله: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، قال: فيفزع الناس ثلاث فزعات، فيأتون آدم، فيقولون: أنت أبونا آدم فاشفع لنا إلى ربك، فيقول إني أذنبت ذنباً أهبطت منه إلى الأرض، ولكن ائتوا نوحًا، فيأتون نوحاً فيقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة، فأهلكوا، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات، ولكن ائتوا موسى، فيأتون موسى، فيقول: إني قد قتلت نفسًا ولكن ائتوا عيسى، فيأتوا عيسى، فيقول: إني عُبِدت من دون الله، ولكن ائتوا محمداً، قال: فياتون، فأنطلق معهم، و.. فأخذ بحلقة باب الجنة فاقعقها، فيقال من هذا؟ فقال: محمد، فيفتحون لي، ويرحبون، فيقولون: مرحبا، فأخر ساجداً فيلهمني الله من الثناء والحمد، فيقال لي: إرفع رأسك، سل تُعْطَ، واشفع تشفّع، وقل: يسُمَع لقولك، وهو المقام المحمود. قال الله: عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا.

وفي سنن ابن ماجه/ ٤٣٠٨ –كتاب الزهد: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر).

وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ الأنعام: ٨٣ - ٩٠ .

إبتدأ القرآن الكريم في هذه الآيات بحكمة الله الحكيم العليم، الذي رفع درجات (١٨) نبيًا، بعوامل الوراثة الإنسانية، والفروق الفردية التي أودعها في هذا العدد بهم وبنسلهم وبآبائهم وإخوانهم، وتفضيل الله لهم على العالمين، واجتباهم محسنين ومهتدين إلى منهاج الله المستقيم.

ذلك سرّ هدايتهم – (فطرتهم الوراثية) عبر ١٨ نبياً من آبائهم وإخوانهم و(استقامتهم على الالتزام بهدي الله)، تحقيقا (لإرادة الله المباشرة) في صياغتهم، ليكونوا بجدارة أهلاً لنشر دين الله في الأرض، ولو انحرفوا عن هذه الهداية الربانية بالشرك ومعصية الله لانهارت شخصيتهم وهبط سلوكهم إلى الحضيض، غير أنهم بفضل هذه العوامل الثلاثة السالفة تميزوا على البشرية وفُضِّلوا على العالمين.

لذا ختم الله تعالى هذه الصفوة المنتخبة من البشر بمحمد صلى الله عليه وسلم لتكون قدوة لإمام الأنبياء وسيد الخلق (ﷺ)، الذي استوعب جميع الفروق الفردية للأنبياء السابقين، إذ لكُلّ صفاته المتميزة في القرآن الكريم، وليستوعب كذلك الفطرة الإنسانية الشاملة للبشرية، إضافة إلى استيعابه الهداية الربانية المنزلة عليه في كتابه العزيز. لذا ختم الله تعالى بهم أمره بالاقتداء بهم (فبهداهم اقتده)، والهاء هي هاء السكت لتأكيد أهمية الاقتداء بهدي الأنبياء جميعاً في عمر البشرية، ليتمثله جميعاً في سيرته العطرة التي تجمع سير جميع الأنبياء الهادين من قبله!! ليكون (الإسلام) هو الدين الموحّد لجميع الاديان السابقة له، إذ هو خلاصتها: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ الشورى: ١٣.

ومن خلال هذا العرض تتضح آثار العوامل الوراثية للجنس الإنساني، إذ هم (بشر)، كما تتضح آثار الفروق الفردية الوراثية في الأنبياء إذ لكل منهم صفاته الوراثية، كما يتضح تدخل الإرادة الإلهية الحكيمة في هداية الأنبياء إلى صراطه القويم، ويتضح كذلك تمثيل

الهداية الربانية كاملة بمحمد خاتم الأنبياء من خلال اقتدائه بهم أجمعين! ومات ورثه فطرة عن أجداده، وما أكرمه الله من عناية متميزة.

ومن أوضح الآيات الدالة علي أثر الوراثة في السلوك الإنساني أسباب (طوفان نوح) الذي أغرق الله به قومه الذين استمرت دعوته لهم (٩٥٠) سنة، ليلاً و نهارًا: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ العنكبوت: ١٤، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦... وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ نوح: ٥ - ٢٧.

وإن آخر الآية تنص على أن المولود منهم سيأتي حتمًا وحصرًا (فاجرًا وكفارًا)، فلم تغن عنه النبوة الكريمة عن بيئة الكفر والفجور الطاغية بينهم، حتى أيقن نوح من خلال دعوته عليهم أن المولود منهم في جميع أنسالهم هم فجرة كافرون، بما انتهى بحكم الله فيهم أنْ يغرقهم أجمعين، ويستأصلهم من جنس البشرية، ولم ينج إلا قلة من المؤمنين في الفلك: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ هود: ٤٠.

المبحث الثاني

الإعجاز القرآني في: أثر البيئة الفاسدة والصالحة في توجيه السلوك

لكل منهما آثارها الإيجابية في بناء السلوك والتسامي به، والسلبية في هدمه وإفساده:

أما أثر البيئة الفاسدة في السلوك فهو أخطر وأسرع من البناء بالإصلاح، لذا يقول القرآن الكريم في قوم نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ نوح: ٢٧، وهذا أثر البيئة الفاسدة في الإفساد!

يحذرنا الاسلام من البيئة الفاسدة بنصوص قرآنية ونبوية كثيرة، لئلا نكون ضحيتها، فنخسر الحياة الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

كما يحذرنا الله تعالى من اتخاذ الفاسدين أخلاّء وأصدقاء، إذ (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)[١٠]، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ الفرقان: ٢٧ - ٢٨، حينئذ يكون أصدقاء الدنيا أعداء المخلصين لربهم: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ الزخرف: ٦٧ .

[١٠] صحيح مسلم/ ٢٢٧٦، و ٣٦٠٥، و سنن الترمذي / ١٣٦٠٦

ولا بد للمسلم من الاختلاط بالناس، ومحاولة إصلاحهم، إذ (الدين النصيحة)[١١]، وفي الحديث الصحيح: (لأن تخالط الناس وتصبر على أذاهم خير من أنْ تعتزلهم، وتسلم من أذاهم)[١٢].

والفساد إما ان يكون أمراً إعتياديًا، صلاحاً وفيه دخَنَ، وإما أن يكون مكفهراً لا أمل في إصلاحه.

أما الفساد الأول فهو الشائع على مدى العصور، وهو واقع الصلاح الذي فيه دخن، ومجالاته واسعة، ومن وسائل الدعوة فيه ما يأتي:

الإعراض عن الفاسدين الذين يطعنون بالقرآن، ثم النهي عن القعود معهم إلاّ لتذكيرهم بسوء سلوكهم، وتوجيههم إلى الهدي الإلهي، بعيداً عن الخوض بالطعون، وحين انتهاء هذه المسؤولية في التذكير (المؤدب، هكذا مجرد تذكير) لا بد من هجرهم، لئلا يغروا الصالحين، بما عندهم من وسائل الإغراء أو يرهبونهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ الأنعام: ٦٨ - ٦٩.

اجتناب الطواغيت من حكام ظلمة ومسؤولين مجرمين، لما لهم من وسائل الإغراء والإرهاب، بما يحمل النفوس الضعيفة على الخضوع لهم طوعاً أو كرها:﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ الزمر: ١٧ - ١٨.

وهذه أدق وصية قرآنية للحفاظ على الشخصية المستقيمة، باخلائها من غير الله، وملئها بهديه:

لما علمتُ بأن قلبي فـــــارغ ممن سواك ملأته بهداكا

وملأت كلي منك، حتى لم أدع مني مكاناً خاليا لسواكا[١٣]

نهي القرآن الكريم المسلمين أن ينصروا الظالمين أو أن يطمئنوا إليهم: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

---

[١١] أخرجه أبو داود والترمذي باسناد صحيح.

[١٢] سبق تخريجه.

[١٣] أخرجه ابن كثير ٢/٥، ٦٥٢، والقرطبي ٣١٢/١٠، والدر المنثور للسيوطي ١/ ١٦٢، ومختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣٥٤.

هود: ١١٣، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾ القصص: ١٧ ، وإن الله لينتقم من الحكام الظالمين، وممن رأى مظلوماً، وقدر على نصرته فأعرض: يقول الله عزّ وجلّ في حديثه القدسي: ''وعزّتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر على أن يعينه فلم يفعل''[١٤].

أسلوب دعوة المسلم، أسلوب واع: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ يوسف: ١٠٨، واع بقدراتك وبفهم المدعوّ، وبفهم الواقع السياسي الذي تعيش فيه، وبالمؤامرات عليك وعلى الدعاة، وعلى الوطن الإسلامي، ومعرفتك بالتخطيط المحيط حولك – الداخلي والخارجي، وكل هذا من الحكمة: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ النحل: ١٢٥، ومن الحكمة والوعي أن تسبق أخلاقك وسلوكُك لسانَك في الدعوة، وتكون قدوة في حركاتك وسكناتك، وأن يكون ميزان علاقتك بالناس (حب الله والعقيدة)، لا الهوى والمصلحة: ''من أحب في الله وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فقد استكمل الإيمان''(أخرجه مسلم).

أما حين دعوة الفاسدين – وهم أعداء العقيدة – فعلينا أن نحمل أنفسنا على سلوك محبب إليهم، لتقريبهم إلينا، ولنحملهم على الإنجذاب لما ندعوهم إليه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ فصلت: ٣٤، لأننا بصدق نحب له الهداية، ولكنا لا نحبه، لأنه يبغض إلهنا وينكر نبينا وكتابنا، ولعله يبغضنا كذلك، إن كان فاهماً دينه الذي يحمله على كرهنا.

العدو لا يحب، ولكن المسلم يحب الخير لكل أحد، وهذا السلوك هو وسيلة جذبه إلينا وإلى الإسلام النافر منه، لعل الله يهديه إلى الإسلام فنربح به الآخرة: (يا علي لأن يهدي الله على يديك رجلاً، خير لك مما طلعت عليه الشمس)[١٥].

ولكن هذا السلوك مع العدو لا يقدر عليه كل أحد، إذ هو موضع شك من قبل أقرب الناس إلى الداعي في صلته بأعداء الإسلام بهذا الأدب الجم الذي يضعه في قفص

---

[١٤] ينسب إلى الإمام الشافعي.

[١٥] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان/ ٩٠٢٤، (وفي وصية النبي الحكيم لأحد أصحابه: ألا أدلك على ملاك هذا الأمر، الذي تصيب به خير الدنيا والآخرة؟، عليك بمجالس أهل الذكر، وإذا خلوت فحرّك لسانك ما استطعت بذكر الله، وأحب في الله، وأبغض في الله، يا أبا رزين: هل شعرت أن الرجل إذا خرج من بيته زائراً أخاه شيعه سبعون ألف ملك، كلهم يصلون عليه، ويقولون ربنا إنه وصل فيك فصِلْه، فإن استطعت أن تعمل في جسدك في ذلك فافعل) وعنه (ﷺ): من أحب أحداً لله في الله، قال: إني أحبك فدخلا جميعاً الجنة، كان الذي أحب في الله أرفع درجة لحبه على – الذي أحبه له) الأدب المفرد/ ٥٥٦، ضعيف.

الإتهام من قبل الجميع، إلا من رحم ربك، لذا عليه الصبر والتحمل وافهام المقربين إليه أن صلته الطيبة بأعداء الإسلام غير المقاتلين لنا، ولا المحتلين لأوطاننا، ولا المتآمرين علينا، إنما هي امتثال لهدي الله في تقريبهم إليه وإلى الإسلام في دعوته، وعليه الالتجاء إلى الله في هذه المحن المبتلى بها من قبل الناس – أصدقاءَ ومنافقين، بل من قبل من يدعوهم كذلك، لذا عقّب الله تعالى بالآية الكريمة: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ فصلت: ٣٥.

أما في غير مجال الدعوة، وحين تقدير الداعية ألا فائدة من الفاسدين في دعوتهم، فعليه أن يجتنب مدّاحيهم: ''أمرنا رسول الله (ﷺ) أن نحث في وجوه المداحين التراب''[١٦]، كما أمرنا (النبي الكريم أن نلقاهم بوجوه غاضبة تشعرهم بحقارتهم: ''أمرنا رسول الله (ﷺ) أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرّة'' (أخرجه مسلم)، لإشعارهم بعزة المسلم، بعيداً عن الذلة لهم أو احترامهم، بعد عجزنا عن هدايتهم.

الحذر كل الحذر من اتباع الأسياد الفاسدين المفسدين: الذين يفسدوننا في الدنيا ويصعدون على رؤوسنا بعروشهم، ويقحموننا النار في الآخرة، ويتبرؤون منا، ولاتَ حين ندم! ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ البقرة: ١٦٦ - ١٦٧.

أما الدعوة حين استشراء الفساد المكفهر وأعاصيره فإنّ المسلم في تفاعل دائم بينه وبين بيئته، في مجال الإصلاح الذي ميّزه عن سائر البشر، فنال به الخيرية عليهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ آل عمران: ١١٠، وليس للمسلم من مسؤولية في الدنيا أكبر من إصلاح المفسدين وتذكير الصالحين، وزيادة صلاحهم، إذ أن الله خلقه لإعمار الدنيا بهدي الله، لذا فإن المسلم بين جذب وشدّ علي قدْر طاقته التي يسخرها في إصلاح بيئته، غير أن ضعف قدرته أمام أهوال الفساد وأعاصيره يحمله أحيانًا علي الإحجام عن الإصلاح، ويقول حينئذ: (عَلَيّ بزمام نفسي!): (لا يحقّرن أحدُكم نفسه، قالوا: وكيف يحقّر أحدنا نفسه يا رسول الله؟ قال (ﷺ): يتعرض من البلاء ما لا يطيق)[١٧].

---

١٦ أخرجه الحاكم في مستدركه/ ٦٥٣٧، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده/ ٢١٥٦٩ (يا معاذ، أن يهدي الله على يديك رجلاً من أهل الشرك، خير لك من أن يكون لك حمر النعم).

١٧ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان/ ٦٧٠١، وورد (إنما الغضب على أهل المعاصي لجرأتهم عليها، فإذا تذكرت ما يصيرون إليه من عقوبة الآخرة، دخلت القلوب الرحمة لهم).

فالاستطاعة والفروق الفردية هي المسؤول صاحبها عنها: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم"[١٨]. يقول الله عز وجل: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة: ٢٨٦، إذ لكل نفس طاقة خاصة تستوعب تكليف الله لها، بفروقها الفردية التي استودعها فيها: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ الطلاق: ٧ ، ومن دعاء القرآن الكريم: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾ البقرة: ٢٨٦، أي كلّ طاقة محدده تختلف عن سواها، وصاحبها مسؤول عن استيعاب طاقته في تنفيذ أمر الله.

وحين ادلهام الخطوب، وطغيان الظلم وتلاطم أمواج الفساد، يحار الداعية في أمره، ويخيره الإسلام بين ثلاثة أمور، حسب طاقاته وقدراته، وحسب تقديراته للظروف الداخلية والخارجية الخانقة للمؤمنين: (إما التصدي الجريئ للظلمة، وإما الهجرة إلى مكان آمن بنّية العودة إلى الدعوة، وإما الصبر على البلاء والانزواء عن الناس، انتظاراً للفرج، والقلب نابض بروح الدعوة، يتربص الظروف المواتية).

أما (التصدي)، فعملاً بحديث المصطفى (ﷺ): (سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره فنهاه فقتله)[١٩]. بسبب أن الغيرة على الله ودينه أعز على المسلم من روحه: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥.

ويقول أحد الدعاة المخلصين: (لو انفض الناس جميعًا عني، واهتزّت مني شعره، فقد كفرت بالله)، لأن الله حسبنا في سائر أعمالنا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ الأنفال: ٦٤، ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ الفرقان: ٣١. ألا يكفينا الله وهديه ونصره! بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين!.

وأما الهجرة، فهي الخيار الثاني: حين تضيق البيئة الفاسدة بظلماتها المجلجلة على المسلمين الدعاة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا

---

[١٨] أخرجه الترمذي وابن حبان وأحمد، ورجاله ثقات.

[١٩] أخرجه بن سعد في الطبقات، وابن الاعرابي في المعجم.

رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ النساء: ٩٧ - ١٠٠. ولقد أذن النبي الداعية المجاهد لأصحابه البررة بالهجرة إلى الحبشة مرتين بسبب حمأة العذاب عليهم، وللحفاظ عليهم في بيئة آمنة، ترصّداً لتغير الأحوال والعودة إلى الجهاد الذي تنبض به عروق المهاجرين، بعد ان ذاقوا الأمرين في وطنهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ الأنفال: ٢٦.

ثم كانت هجرة النبي المجاهد (ﷺ) هو وأصحابه إلى المدينة المنورة، فتحاً مبينًا لهم[٢٠]، وكانت بدء التاريخ الإسلامي الهجري، في دار الهجرة الجديدة الآمنة التي ربّى النبي فيها أصحابه، وأقام دولته، وكانت عاصمة الخلافة الاسلامية أكثر من ثلث قرن!

وكان للهجرة في عمر التاريخ الاسلامي آثارها في هجرة عشرات الملايين هرباً من المغول، ومن الظروف السيئة إلى أقاصي الأرض، وحباً في نشر الإسلام بين الأمم، فكانت الهجرة إلى الشرق الأقصى في أندونيسيا وماليزيا وتايلاند والصين والهند، وجزائر المحيط الهندي، والسواحل الشرقية والغربية لافريقيا وعبر الصحراء الكبري إلى قلب إفريقيا، وإلى سيبريا حتى القطب الشمالي!.

أما الصبر في البيوت، والتربص للوثوب، فهو الخيار الثالث، وهو أصعب الاحتمالات، لأن الإقامة على الذل أصعب الأمور على المسلم الداعية المجاهد وهو (الرِّباط):

ولا يقيم على ضَيْم يُرادلـــــه إلا الأذلان: عير الحَيّ والوتد!

هذا على الخَسْفِ مربوط برمتّه وذا يُشَجّ، فلا يرثي له أحد!

يقول المصطفى (ﷺ) إمام الدعاة إلى الله: ''إذا رأيت الناس قد مرَّجت عهوُدهم، وخَفَّت أماناتهم، وكانوا هكذا، وشبك أصابعه، قال الراوي: فقمت إليه، فقلت: كيف أفعل عند ذاك؟ جعلني الله فداك؟ قال: إلزم بيتك ، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك العامة''[٢١]، أي حين لا عهود ولا أمانة ولا صدق، وحين تشابك مشكلات الحياة ومعضلاتها، كتشابك الأصابع، حينئذ في تلك البيئة لا جدوى من الدعوة، والحفاظ على الحياة أولى من

[٢٠] كان حمزة (رضي الله عنه) قبل استشهاده يقول: (أنا أسد الله وأسد رسوله) وقال (ﷺ): (سيد الشهداء يوم القيامة حمزة) الحديث أعلاه أخرجه الحاكم في المستدرك/ ٢٥٥٧، ٤٨٨٤، في رواية أخرى و ٤٩٠٠.

[٢١] يقول (ﷺ) في بشارة الله تعالى له بالهجرة في سورة الفتح: (نزل عليَّ البارحة سورة هي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، وهي: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً).

تعريضها للفناء، فيعمل المسلم ما يعرفه فطرةً وهديًا إلهيًا، ويترك ما يُنكره على المجتمع وعلى الطغاة، إذ لا فائدة أن يضحي بنفسه، وعليه أن يعنى بحاجة نفسه، ويدع العامة، إذ فيها البلاء والمصائب، وفيها ينتشر المخبرون والجواسيس، والأعداء المتربصون بالوقيعة والخطف والقتل والمداهمة.

وعلى المسلم أن يحافظ علي حياته، ولا يغامر بها إلا إذا رجحت في قلبه كفة المغامرة، لأن حياته عزيزة على ربه: (لو اجتمع أهل السماء وأهل الأرض على قتل مسلم لأكبهم الله جميعاً في النار)[٢٢].

أما استمرار آثار البيئة السيئة على الأفراد والمجتمع فإن خطره يؤدي تدريجاً إلى انهيار السلوك بمراحل ثلاث:

الترقيع، وهو ضم الفكر الدخيل والسلوك السيئ بمغرياته والزخرفة لدعاته إلى أصالتنا: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ الأنعام: ١٢٢، وإن جمع المتناقضين يزعزع العقيدة السليمة في الخير: كما يعصف بالسلوك المستقيم، ويمزق الفكر، ويعزل (الروح والقلب) عن الحياة، فيعيش الإنسان ابتداءً – بالانحدار إلى الحياة إلبهيمية، فاقداً مقوماته الإنسانية: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ النساء: ١١٥.

التفتيت، فإن استمر الترقيع، من غير منّبه إليه، ومن غير عمل شعبي وحكومي جاد في الرجوع إلى (الأصالة) التي تمثل مقومات هذه الأمة في إسلامها الذي هو حياتها ومجدها، ستؤول النتيجة إلى تمزيق العقيدة وتمزيق المنهاج الإسلامي للحياة، فتهزل القيم وتتضاءل إزاء الغزو الفكري والأخلاقي القائم الآن في العالم العربي والإسلامي، لاسيما في المجال الثقافي والتربوي: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ البقرة: ٨٥.

الانسلاخ، وهو آخر مراحل الانهيار لمن يستجيب للإعلام والمناهج غير الإسلامية التي تعبث بنا اليوم، حينئذ يستوي المسلمون – لا سمح الله – مع أعدائهم في العقيدة و يقهرونهم، لأنهم أقوى منهم، فيُحكمون أطواقهم عليهم: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ النساء: ٨٩، ويسخرونهم لمصالحهم، عبيداً لهم، لا سمح الله، وهذا ما يخططون له وينفذونه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ

[٢٢] أخرجه الحاكم في المستدرك/ ٧٧٥٨، وأحمد في مسنده/ ٦٩٤٨.

فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦.

ويؤكد النبي الحكيم الحذر من هذا المصير للانسلاخ من الإسلام بالنتيجة المفجعة التي حلت اليوم: (يوشك ان تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم، وليقذفنّ في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال (ﷺ): حب الدنيا، وكراهيتكم الموت)[٢٣].

ثانياً: الإعجاز الرباني في أثر البيئة الصالحة في السلوك:

الحياة التي نحياها هي البيئة التي تحيط بنا، ممتزجة بآثار الفطرة الإنسانية، وآثار الفروق الفردية كذلك، كما علمنا سابقا، ولكل منهما آثارها، رضينا أم أبينا.

أما الروح والعقل والقلب والجسد، فقد فطرت كلها على الخير، وأما النفس ففطرت على الخير والشر معا: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ الشمس: ٧ - ٨، إبتلاء من الله لنا أن نحسن رعايتها، بتوجيه العقل والقلب لها، وتسخير الهدي الإلهي للتسامي بها، مع الانتباه إلى ما أودع فيها من خير فننمّيه ومن شر فنقصيه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ الشمس: ٩ - ١٠.

وما دام هذا الدين متجاوباً مع الفطرة، ولا يعارضها، بل يسمو بها، فلا نفاق به ولا إكراه عليه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ البقرة: ٢٥٦، رشد فطري، ورشد هداية رب العالمين، نزل في كتاب محكم مفصل من خالق النفس وخالق الحياة: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ هود: ١.

الإعجاز الرباني بدوافع السلوك في إصلاح البيئة: إن إصلاح البيئة بتنقيتها من آثار الفساد، ثم التسامي بها في مدارج الإصلاح، يتزامنان مع بناء الفطرة الإنسانية الوراثية، ولا ينفصلان عنها، لغرض البناء المتكامل للإنسان الرباني: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ البقرة: ١٣٨، لذلك فإنه يحتاج إلى جهود مكثفة، ودوافع سلوكية تتناسب معها، لإدراك النتائج الموعودة: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا

[٢٣] أخرجه البيهقي في شعب الأيمان/ ٥٣٥٢، ويروى: (لو أن أهل الأرض اشتركوا في قتل مؤمن لعذبهم الله) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى/ ١٦٢٩٢، ومن يشاقق الرسول، أي يأخذ شقّاً من هديه، وشقاً من هدي غيره!

لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ العنكبوت: ٦٩.

وإن دوافع السلوك التي تقوي الإرادة في حمل عبء، الإصلاح الثقيل أربعة:

مصدر الهدي الإلهي: وهو القرآن الكريم، وقدسيته، إنه من رب العالمين، خالق الكون، وهو أحب إلينا من الدنيا وما فيها: (ثلاثة من كُنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار)[٢٤].

ولن تستحكم الروابط الاجتماعية في نفوس أصحابها إلا حين يكون الله تعالى هو الدافع السلوكي المتجرد عن غيره، يقول إمام الدعاة (ﷺ): (إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك)(متفق عليه)، وان نظام الهدي الإلهي ومنهاج الحياة لنا هو القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ ﴾ الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥، وشرحه بسنته: ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ النحل: ٤٤.

طبيعة الهدي الإلهي: بسبب كونه فطريًا معروفاً في النفس من غير معلم: كما أسلفنا، وكونه يسمو بها إلى أعلى المنازل، وعيًا عقليًا، وإدراكاً لمزاياه، ولتجاوبه مع القيم الأخلاقية الفطرية التي يسمو بها المسلم إلى القمة، بخلقه الذي لا نهاية له إلى رب العالمين، مثلاً أعلى له: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ الروم: ٢٧.

وبذا يستحيل هذا الخلق الرباني فيه إلى سلوك عملي لإسعاد البشر كافة، (من نفّس عن مؤمن كُربة من كرب الدينا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر عن معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[٢٥]، وإن ثمرة قضاء حاجات المعوزين تعدل أضعاف ثواب العبادات: (لأن تسير مع أخيك في قضاء حاجته حتى تنجزها، خير لك من صيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا)[٢٦]، وهي تعادل بضع عشرات الآلاف من الحسنات! في قضاء حاجة واحدة.

---

[٢٤] أخرجه أحمد وأبو داود وابن عساكر وأبو نعيم.

[٢٥] أخرجه مسلم والترمذي/ التاج/ ٤/٧٤.

[٢٦] أخرجه الستة إلا البخاري، وأخرجه مسلم وابو داود، والترمذي.

جزاء الله بالثواب والعقاب: لم يقتصر هذا الهدي الإلهي على السعادة الدنيوية وحدها، بل شمل الدارين: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ النحل: ٩٧، فهو في جنتين – كرماً من ربه. لذا فإن المسلم أبداً بين أمل وخوف، أمل برضوان الله، وخوف من عقابه.

أما ثواب الله الكريم فيتمثل برحمته التي تطغى على نعيم الدنيا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ يونس: ٥٨، ويتمثل برضوان الله عز وجل الذي يطغى على نعيم أهل الجنة: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ التوبة: ٧٢، ومن نعيم الجنة رفقة المصطفى (ﷺ)، أما نعمة النظر إلى وجهه الكريم، فإنها تُنسي أهل الجنة نعيمها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ القيامة: ٢٢ - ٢٣، يقول الحبيب (ﷺ): (إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر، ولا تضامون في رؤيته)[٢٧].

ومن رحمته بنا يوم القيامة هذا الحديث المبهر من رب كريم: (إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخّر تسعاً وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة)[٢٨]. ومن رحمته عزّ وجل حسابنا اليسير على أعمالنا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ الانشقاق: ٧ - ٨، إذ (من نوقش الحساب يهلك)[٢٩]، نأمل الله تعالى برحمته تسلم كتابنا بأيماننا، وتلك هي الفرحة الكبرى الدائمة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ

---

[٢٧] أخرجه الحاكم في المستدرك/ ٧٧٠٦، ونصه كاملاً: (من أدخل على مؤمنٍ سروراً إما أن أطعمه من جوعٍ وإما أن قضى عنه دينا، وإما نفّس عنه كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كرَب القيامة، ومن أنظر موسراً أو تجاوز عن معسر أظلّه الله يوم لا ظلّ إلا ظله، ومن مشى مع أخيه في ناحية القرية ليثبت حاجته ثبّت الله عزّ وجل قدَمه يوم تزلّ الأقدام، ولأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته أفضل من ان يعتكف في مسجدي هذا شهرين – وأشار بإصبَعه – آلا اخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الذي ينزل وحده ويمنع رفده ويجلد عبده).

[٢٨] أخرجه البخاري/ ٦٩٩٩.

[٢٩] ونصه كاملاً: (إن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مئة رحمة طباق ما بين السماوات والأرض، فجعل في الأرض منه رحمة طباق ما بين السماوات والأرض، فجعل في الأرض منها رحمة، فيها تعطف الوالدة علي ولدها، والوحش بعضها بعضا، وأخّر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة، أكملها بهذه الرحمة منه) أخرجه ابن حبان وأحمد/ ٢٣٢٠٨، ٦١٤٧.

أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ الحاقة: ١٩ - ٢٤.

أما عقابه، فهو أليم ومُهين، ينتهي بتسلّم كلٍّ من المفسدين كتابَه بشماله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ الحاقة: ٢٥ - ٣٧.

السيرة النبوية: التي تمثل الخلق الرباني الذي أنزله الله على جميع الأنبياء، متمثلاً بالسلوك العملي، هو قدوة لأمته حتى قيام الساعة، بما يوضح الصورة المثالية للإنسان الرباني الملتزم، بمنهاج خالقه، وليس في الوجود إنسان حقق هذه الصورة في جمعه للفروق الفردية الوراثية الفطرية، المنبثة من نطفة آدم في الخلق حتى انتهت إليه! إلا سيد الأنبياء محمد (ﷺ). إنها الصورة الإنسانية الوحيدة في عمر التاريخ البشري التي يطابق فيها السلوك العملي المنهاج الفطري الرباني، بهذا الشمول وهذا التسامي! صلّى الله عليك وملائكته يا رسول الله، يا إمام الرسل أجمعين.

إن هذه الدوافع السلوكية الأربعة، لا تتوفر إلا بالإسلام، نظام البشرية الخالد، حتى قيام الساعة، وما سواه نقص هائل في التوجيه السليم، إضافة إلى ما فيه من فساد أو إفساد، باجتهاد الإنسان الخاطئ الملوث بالهوى والمصالح.

يقول الصادق المصدوق (ﷺ): (قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضّوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإن عبداً حبشياً، فإن المؤمن كالجمل الأنف، حيثما قيد انقاد)[٣٠].

[٣٠] صحيح البخاري/ ١٠٣ (من حوسب عذب، فقالت عائشة: فقلت: أو ليس يقول الله تعالى فسوف يحاسب حساباً يسيرًا، قالت: فقال إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك)، ومسلم ومسند أبي يعلى الموصلي/ ٦/٦٤٤٥.

المبحث الثالث

الإعجاز الإلهي في حكمته المهيمنة على السلوك الإنساني

الإعجاز في خلق الله وأمره

يقول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ الأعراف: ٥٤، ويوصينا بالتدبر في نصوص قرآنه المجيد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ محمد: ٢٤.

وحين تدبرنا للآية الكريمة، نتبيّن ما يأتي:

(ألا): أداة عرض، للاستفتاح، وهي تنبيه إلى ما بعدها من أمر جلل.

(له الخلق والأمر): تقديم الخبر (الجار والمجرور) على المبتدأ، هو أسلوب بلاغي من أساليب الحصر والقصر، يفيد أن (الخلق والأمر) من اختصاص الله وحده في هيمنته على الخلق والكون.

(تبارك الله رب العالمين): هذه الهيمنة من بركات الله الخلاق العليم، الذي اختار لذاته في هذه الآية: (ربّ العالمين) من سائر صفاته الكريمة، إشارة إلى تربيته للعوالم التي خلقها متصلة بهذه الهيمنة، وأوضح مقام تربيته في هيمنته، ومن تربيته التنشئة على مناهجه وهديه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ الشعراء: ٧٨، ومن تربيته القهر لأعدائه الطواغيت والمتجبرين على عباده، المستعلين عليه: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ الدخان: ١٩، ومن تربيته إخضاع الكون لطاعته: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ يس: ٨٢.

أما الأمر: فهو أمر الله المطاع الساري على الكون جميعه:﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾ الرعد: ٣١، ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾ الروم: ٤، من قبل الخلق ومن بعده، وإن أمره عزّ وجل نافذ كلمح البصر: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ القمر: ٥٠، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ يس: ٨٢.

حكمة الأمر الإلهي: وإن أمره عزّ وجل حكمة بالغة، يخضع الكون جميعه له: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ

تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴿٢٨﴾﴾ الروم: ٢٥ - ٢٨. وليس الأمر الإلهي عفوياً، وإنما هو مقدر بتقدير بالغ الدقة ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴿٣٨﴾﴾ الأحزاب: ٣٨.

الإعجاز في إرادة الله عزّ وجل وإرادة الإنسان في الهيمنة على السلوك:

﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه﴾ الأنعام: ١٠٢، خلق الكون وأودع فيه قوانينه التي تُظهر هيمنته عليه، وهي قوانين ثابتة، مغروسة في كيان كل ذرة فيه يعلمها بدقائقها: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴿٥٩﴾﴾ الأنعام: ٥٩، فالكون جميعه يسير بها، لا تغيير لهذه القوانين ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ يونس: ٦٤، ولا تغيير لطبيعة الكون (لا تبديل لخلق الله)، بل كل ما في الكون يسبح بعظمة الله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴿٤٤﴾﴾ الإسراء: ٤٤.

كما خلق الله الإنسان، وأودع فيه قوانين فطرية في كيانه في محاوره الخمسة، وهي قوانينه الفطرية الوراثية المودعة فيه، بما تشعره بمجالات الحلال والحرام: (إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن...)[31]، مضافاً إليه ما أنزله الله الخالق العليم من هدى، تجاوباً مع هذه الفطرة النقية المغروسة فيه وراثة وولادة: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ الروم: ٣٠، وتسامياً بها وتطويراً، وتحذيراً من انحرافها عما فطرها عليه.

وتتمثل إرادة الله عزّ وجل في هيمنته على الإنسان في ابتلائه بالنفس وما فيها من خير وشرّ، وابتلائه بالشيطان الذي يوسوس له بالشر: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴿٣٥﴾﴾ الأنبياء: ٣٥، وتتمثل كذلك بأن أودع فيه من بصيرة تبصره الطريق، وهو (الضمير) -﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴿١٤﴾ ولو ألقى معاذيره ﴿١٥﴾﴾ القيامة: ١٤ - ١٥، و(العقل) المستجيب لهدى الله فطرة، لئلا يعتذر الإنسان عن انحرافه بين يدي الله يوم الحساب.

---

[31] أخرجه ابن ماجه/ ٤٣، والحاكم/ ٩٦: ١، وأحمد/ ٤: ١٢٦، ونصه ابتداءً: (وعظنا رسول الله (ﷺ) موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ قال الحديث، كما أورده الحاكم وابن حبان وابن عساكر، وأبو نعيم والخطيب البغدادي، بقوله: (إني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله و سنتي، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد).

فسلوك الإنسان بعد كل ذلك يمثل إرادة الله في النتيجة، ولكن من غير إلزام منه ولا إجبار، ولو ألزمه الله تعالى وأجبره، لما حاسبه على أعماله، بل ترك أنفسهم تحاسبهم: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤ ﴾ الإسراء: ١٤.

أما إرادة الإنسان إزاء إرادة الله عزّ وجل، فليس له إلا التسليم لها: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١ ﴾ الأنعام: ٧١، ومشيئتنا في سلوكنا في الحياة هي التي تمثل إرادة الإنسان، مطابقة لمشيئة الله رب العالمين: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩ ﴾ التكوير: ٢٩، سواء أكانت إرادتنا في الخير الذي فطرنا به الله وأمرنا به، أم كانت في الشرّ بتنكب ما أودعه الله في فطرتنا، ومن غير إجبار الله عزّ وجل لنا على سلوك معين: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢ ﴾ التغابن: ٢.

أما إرادة الله تعالى في هيمنته على الكون من جمادات، فيمثلها ما أودع فيها من قوانين ثابتة تهتدي بها في مسيرتها وحركتها، ويوضحها كثير من آيات القرآن الكونية، التي تشير إلى قوانين الجاذبية وإلى القوانين الفيزيائية والكيميائية والجيولوجية التي تحكم النظام الكوني بإرادة الله الخالدة: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمٗا غَفُورٗا ٤١ ﴾ فاطر: ٤١.

أما إرادة الله تعالى في هيمنته على عالم الأحياء – الحيوان والنبات، وما يملك من روح، لا عقل له ولا إدراك، خلقه الله ووهبه الفطرة المجرّدة من الوعي التام، بما عبّر عنه الله تعالى بالهداية في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠ ﴾ طه: ٥٠، خلقه الله الخلاق العليم، وغرس فيه من الفطرة ما تهديه في حياته من الحيوان الضخم – الفيل والكركدن والحوت إلى النمل والجراثيم، جميعها هداها الله بفطرة محدودة مدركة تضمن لها حياتها وسلامتها.

لذا يحاسب الله الحيوان يوم القيامة على قدر إدراكه من اعتدائه على قرنائه، فينتقم الحيوان المظلوم من الظالم، ثم يقول تعالى لهم: (كونوا ترابًا)، وهو ما يتمناه الكافر يوم القيامة أن يكون مصيره مصير الحيوان، حيث يستحيل تراباً: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠ ﴾ النبأ: ٤٠، بدلاً من خلود الكافر في النار!. يقول المصطفى (ﷺ): (لتؤدَّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)[٣٢].

[٣٢] أخرجه مسلم في صحيحه/ ١٥٩٩، في حديث طويل سبق ذكره.

الإعجاز في هداية الله عزّ وجل:

إن أشق عمل في الوجود هو الهداية والإصلاح، ولا هداية إلا بتوفيق الله عزّ وجل وعونه، وهي مرتبطة بمشيئته حتى إن سيد الخلق محمد (ﷺ) لا قدرة له على الهداية وحده إلا بعونه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ القصص: ٥٦.

وإن من الهداية ما هو منعقد بمشيئة الله وحده، وهو الذي يحكم الكون: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ﴾ يونس: ٢٢، ومنها منعقد بالأسباب المنطقية العادلة التي لها صلة بإرادة الإنسان، والمستجيبة لنداء الفطرة الإنسانية الوراثية السليمة فيه.

أما امتناع الهداية الربانية، فمنها مشيئة الله التي لا اعتراض عليها، وهي عدل، ولكن الغيب لا يعلمه إلا هو: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ ص: ٨٨، ومنها عقابه لمن خالف فطرته النقية التي فطره الله عليها، وعقابه لمن ينكر الهدي الإلهي ويتحدّى الله ويجاهر بالمعاصي والاستعلاء عليه عزّ وجل، ويعبد الهوى ويفضل الدنيا على الآخرة، وينكر الآخرة.

إن هذا الإعجاز الإلهي في الهداية تمثله المحاور الثلاثة الآتية:

أولاً: الإعجاز في مشيئة الله المطلقة بالهداية، هي التي تحكم الكون:

إن الهداية من الظلام إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، ومن الشقاء إلى السعادة، هي كلها منعقدة بيد الله تعالى وحده: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ الأنعام: ١٢٢، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ البقرة: ٢٥٧، فالله تعالى بيده الهداية المطلقة: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ البقرة: ٢١٣، فلا اعتراض على هدايته، إذ له وحده التصرّف في خلقه كيف يشاء، ومشيئته عدل، وإن خفيت علينا أحياناً: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ الأحزاب: ٤.

حتى إن الضلالة هي من تقدير الله ومشيئته كذلك: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ إبراهيم: ٤. وهي لمن يستحقها ويعمل بها.

ثانياً: الإعجاز في الهداية بين إرادة الله وإرادة الإنسان:

إن إرادة الإنسان مستمدة من الفطرة الإيمانية التي غرسها الله في كيان الإنسان بمحاوره الخمسة مضافاً إليها العوامل المؤثرة فيها من خير وشر.

أما إرادة الله عز وجل، فهي المهيمنة على إرادة الإنسان بخيره وشره المستقاة من الفطرة، والهدي الرباني، فما يصدر عن الإنسان من سلوك، إنما هو الذي يمثل إرادة الله المهيمنة على الكون أجمع: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ الروم: ٤، ولكن من غير إكراه من الله لأحد: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف: ٢٩، ومشيئة الله هي المهيمنة، وهي النافذة في الكون: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ التكوير: ٢٩.

وحين نرجع إلى هداية الإنسان في منهاج حياته، ونقارنه بهداية الله الشاملة لكيان الإنسان بمحاوره الخمسة، نجده كنسبة الصفر إلى ما لا نهاية من الكمال (فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه)[٣٣]، ذلك أن الله تعالى يُعنى بهدايته بالتكامل والشمول للإنسان بكليته – روحه وعقله وقلبه ونفسه وجسده، وهذا هو التكامل في منهاج الله، في حين أن منهاج الإنسان ناقص وخاطيء حتى في توجيه جسده، مع بعض الإضرار به، وهو مخطئ ومضرّ في توجيه أكثر مجالات العقل، وهو قاصر ومفسد في توجيه النفس، وهو يُغفل توجيه الروح والقلب، إذ يجهل حقيقتهما كما يجهل حقيقة النفس: (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم) الكهف، ولا يعرف إلا القليل عن أثرها في السلوك، هذا إضافة إلى فساد المناهج الخلقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يصوغها الإنسان، ممتزجة بالهوى والمصالح والطغيان والاستبداد بالشعوب، كما نلحظها في العالم اليوم، في حين أن هدي الله حق كامل: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الذاريات: ٢٣، لا هوى فيه، ولا انتقاص من حق أحد، وليس فيه احتمالات، وتجارب ونظريات متناقضة ممزّقة للجنس الإنساني، كما هو إليوم: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ الأنعام: ٧١.

لذا فلا مناهج صالحة للجنس الإنساني إلا منهاج الله الذي يصوغ الإنسان الفطري الرباني الواعي الشامل لشخصية الفرد والأمة.

السنة النبوية – والسيرة الكريمة: هي تفصيل لهداية الله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ النحل: ٤٤، فسنة رسوله الحكيم بيان

[٣٣] أخرجه مسلم/ ٢٥٨٢، والترمذي/ ٢٥٣٥ (تحفة الاحوذي)، وقال في الباب: (الجلحاء التي لا قرن لها)، رسائل بديع الزمان النورسي، المثنوي/ ٤٠٨

وشرحٍ لهدي الله في كتابه العظيم، وإن سنته الشريفة هداية ضامنة للمسلمين منهاج حياة شاملاً لهم[٣٤]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ الشورى: ٥٢.

أما السيرة النبوية فهي تمثل أمرين خطيرين:

أولهما: إحالة المنهاج النظري في الإسلام المتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية، إلى مجالات تطبيقية شاملة توضح لنا المجال السلوكي في كل ما تضمنه المنهاج الإسلامي النظري، وهو الملزم لكل مسلم بالاقتداء به: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ الأحزاب: ٢١.

وثانيهما: تمثل السيرة النبوية القدوة بجميع الأنبياء السابقين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ الأنعام: ٩٠، والاقتداء بهم إنما هو تمثيل للهدى الإلهي للجنس الإنساني في عمره، وهو تمثيل لوحدة الأديان التي اجتمعت بسيرة الرسول الهادي (ﷺ)، لذا ختمت الآية بأن هدى الله لجميع الأنبياء المتمثل باقتداء الرسول الكريم بهم من خلال سيرته الشريفة، إنما هو ذكرى للعالمين، لجميع البشر حتى نهاية الكون.

ثالثاً: أسباب الهداية الربانية، حين نستقصيها من نصوص القرآن الكريم يتبين لنا ما يأتي، من خلال ما غرسه الله في كيان الإنسان الفطري المسدّد بهداية الله تعالى.

الإيمان الفطري بالله عز وجل وهو أول طرق الهداية: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ التغابن: ١١، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ﴾ يونس: ٩، والله عز وجل يؤكد بتأكيدين هدايته للمؤمنين الصادقين بـ(إن) وبـ(لام التأكيد): ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ الحج: ٥٤.

الحرص على رضوان الله يثمر هدايته عزّ وجل: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ المائدة: ١٦.

ذكر الله ليكون في معيته يهديه، شكراً لذكره وعدم نسيانه: وفي الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن تقرّب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)[٣٥]، وفي

---

[٣٤] أخرجه الترمذي/ ٢٩٢٦، والدارمي/ ٣٣٥٧.

[٣٥] لقد أوشكت على انجاز مسودة كتابين واسعين: (نظم الحياة من كتاب الله العزيز)، و(نظم الحياة من

الحديث القدسي: (يا ابن آدم قم إليّ أمشِ إليك، وامشِ إليّ أهرول إليك)[٣٦]، وفي حديث قدسي آخر: (أذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي)[٣٧]. أية منزلة هذه للعبد إزاء ربه من تكريم! أن يسارع إلى التقرّب من ربه ليهديه وليسّر أمره في الدارين!.

المعتمد على ربه والواثق به: يهديه الله عز وجل مكافأة له، ويستجيب لهدايته طوعاً وحباً: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ آل عمران: ١٠١، فمجرد الاعتصام بالله هداية وقوة ومنَعَة.

المنيب إلى الله، والتوّاب والرجّاع دوماً إليه: يعزّه الله تعالى ويهديه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ الرعد: ٢٧.

المتوكل على الله بصدق يكرمه الله: ويغنيه عن غيره: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ الطلاق: ٣.

المتقي أفضل إنسان: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ الحجرات: ١٣، لذا فإن الله عز وجل يكافئه بالهداية، بكتابه العظيم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ البقرة: ٢.

الموقن بالإسلام: وهو فطري يسري في عروقه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ الروم: ٣٠، يرحمه الله ويهديه: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الجاثية: ٢٠.

بذل الجهد في سبيل ربه: فمن يحسن البذل في جهاده بالمال والوقت والجهد والنفس، يحقق الله له الهداية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ العنكبوت: ٦٩.

هدي المصطفى (ﷺ)، ويستوفي كلٌّ منهما إثني عشر نظاماً شاملاً للحياة بأسرها: (النظام العقدي، الروحي، الدعوي، الصحة والقوة، النفسي، التربوي، الأخلاقي، الاجتماعي، الاقتصادي، السياسي، العلاقات الدولية).

[٣٦] أخرجه البخاري/ ٧٠٦٦، ومسلم/ ٢٦٧٥ بنصه كاملاً، وفي رواية الدارمي في سننه/ ٢٦٣١ (قال تبارك وتعالى (أنا عند ظن عبدي لي، فليظنّ بي ما يشاء).

[٣٧] أخرجه أحمد في مسنده/ ١٥٤٩٥.

الإعجاز الرباني فيمن لا يستحقون الهداية:

إن الذين يهديهم الله يتجاوب كيانهم الفطري مع هدي الله عز وجل، لذلك سرت الهداية الربانية في عروقهم سريان الماء في الوادي، مع انشراح صدر واطمئنان نفس.

أما الذين لا يهديهم الله فإن كيانهم الفطري المتلبّد بالمعاصي والانحراف عن الفطرة السليمة إلى قساوة القلب، وفساد الفكر، وضمور الروح، وخبث النفس، ومرض الجسد بالخمر والشهوة،.. هكذا كيان للإنسان لا تنفذ إليه نسمة الهداية، بل يرفضها، وحين تكلمه بأي نصّ من نصوص الهداية الربانية كأنك تغسل حبشياً لعله يبيض! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ البقرة: ٦ - ٧، أو كأنك تنطح صخرة!

كناطح صخرةً يوماً ليوهنها فلم يضرْها، وأوهى قرنَه الوَعِلُ

أما الذين لا هداية لهم ولا يستحقونها، فهم من الأصناف التالية:

المرتد من الإيمان الفطري إلى الكفر: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾ آل عمران: ٨٦، كفروا بعد إيمانهم بالله وبرسوله وبالبينات من نصوص الكتاب والسنة والسيرة!

الفاسق، المتمرد على طاعة الله: هو بطبيعته الفاسدة المنحرفة يرفض هداية الله، فتحق عليه إرادة الله في عدم هدايته: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ يونس: ٣٣، فكيف يهديهم، بل كيف يجبرهم على الهداية وقد رفضوها! ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ المائدة: ١٠٨، بل إنه استحق الإضلال من الله له: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ البقرة: ٢٦.

الكافر، المصرّ على كفره: فقد خلع الإيمان من قلبه، وما دام كذلك فهو بعيد عن الهداية ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ البقرة: ٢٦٤، أما إذا بدأ الكافر في الإصغاء إلى فطرة الإيمان في قلبه، وبدأ التفكير بعقله لا بعصبية الكفر لوثنيته أو لدينه، فإن الله يتقبله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ الرعد: ٢٧.

الخائن، والخوان – كثير الخيانة: هو المنفلت من فطرته السليمة، ومنفلت من بصيرته التي تعصمه من الخيانة، ومنفلت من شعوره برقابة الله عليه، فكيف يهديه الله؟! ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ يوسف: ٥٢، والخائن يكيد الغدر للناس، فلا مكان للهداية في كيانه.

الظالم: وهو الذي يسيئ إلى غيره إساءة اعتداء على كرامته وحريته وعرضه وماله وروحه، وهو الذي يسلب غيره نعمة الأمن والاستقرار والكرامة والسرور، والاعتداء – عموماً ترفضه الفطرة السليمة كما يرفضه الدين ويشدّد فيه إذ: (إتق دعوة المظلوم، فانه ليس بينها وبين الله حجاب)[٣٨].

الكذاب الكفار: والكذب سلوك تستقذره الفطرة السليمة، إذ هو خداع وأنانية لمصلحية، ووقيعة بالغير، وإيقاد فتن، فمن انتزع من فطرته القيم السلوكية وكذب بها وكفر بها، فكيف يهديه الله؟!: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣﴾ الزمر: ٣، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٌ ۝٢٨﴾ غافر: ٢٨.

الذي لا يؤمن بآيات الله، ويكذبها: وليس فيه استعداد لقبولها، فكيف تتنزل عليه هداية الله، وقد اجتثها من قلبه وعقله، بل اعتبرها كذباً لا صدق فيها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤﴾ النحل: ١٠٤.

الأصم الأعمى: الذي يغلق حواسه عن استماع الهداية الإلهية، وقد رفضها بحجز حواسه عنها! لذا فان حجب الهداية الربانية عنه عدل من الله عزّ وجل: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٤٠﴾ الزخرف: ٤٠، وإن الصمم والعمى هو بسبب سيطرة الهوى، كما ذكرنا، إذ (أن حبك الشيء يُعمي ويُصمّ)، ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ۝٤٣﴾ الفرقان: ٤٣.

المتكبر الطاغية: والتكبر اضطهاد لكرامة الآخرين، وهو طعن في أعزّ ما يملكه الإنسان – كرامته التي كرّم الله بها الإنسان على من سواه: ﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الإسراء: ٧٠، لذا فإن من يحمل في قلبه ذرة من كبر لا يدخل الجنة: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)[٣٩].

إن شر المتكبر الجبار على وطنه وشعبه، لذا كان عقابه عند الله أشد عقاب: يقول الله عزّ وجل في الحديث القدسي: (وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله وآجله، ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً، وقدر على أن يعينه فلم يفعل)[٤٠].

---

٣٨ أخرجه الترمذي في سننه/ ٣٦٠٣.

٣٩ أخرجه الترمذي/ ٢٥٤

٤٠ أخرجه مسلم/ ٩١، وأخرجه كاملاً (..قال (ﷺ): إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال (ﷺ): إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس)/ ٩١.

المفضل للدنيا على الآخرة: وربط القرآن ذلك بالكفر: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ النحل: ١٠٧، إن العمل للدنيا، حباً لها أمر فطري ومشروع، لتلبية حاجات الإنسان فيها، وللتمتع بها: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ الأعراف: ٣٢، فالدنيا يشترك في نعيمها المسلم والكافر، أما يوم القيامة فالنعم جميعها خالصة للمسلمين.

أما اتخاذ الدنيا غاية فليس ذلك من شأن المسلم، إذ غايته الآخرة: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ الأنفال: ٦٧، ويعلل ذلك النبي ﷺ: (من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى)[٤١]، ولم يقل ﷺ (وازنوا) بل قال: (آثروا) أي فضلوا العمل للآخرة، وركزوا جهودكم لها، إذ هي الحياة الحقيقية: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ العنكبوت: ٦٤، وهي نهاية المطاف: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ الغاشية: ٢٥ - ٢٦.

الإعجاز القرآني في استثناء أثر الوراثة والبيئة على السلوك:

إن كلاً من الوراثة والبيئة يهيمن عليها وعلى آثارها خالقها القدير: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ الأعراف: ٥٤، غير أن الخلاق العليم خالق الأكوان والإنسان وخالق قوانينها هو الذي يحكمها جميعها، وهو المهيمن عليها: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ الرعد: ٤١، لذا فان هنالك إستثناءات من أثر الوراثة وأثر البيئة في السلوك، وهي من أمر الله وحده، لا اعتراض لحكمه: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ الأنعام: ٧١.

أولاً: الاستثناء من أثر الوراثة في توجيه السلوك:

ينبهنا القرآن الحكيم إلى أن القوانين الوراثية لا تسري دائماً على الجميع بدقة، وهي خاضعة لمشيئة الله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ التكوير: ٢٩.

توضح الآية الكريمة في سورة الصافات أن نسل إبراهيم واسحق (عليهما السلام)، ليس في جميعه الصلاح، رغم أن الأبوين أنبياء: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ

[٤١] أخرجه ابن حبان/ ٧٠٩، والحاكم في مستدركه/ ٧٨٥٣، و٧٨٩٧، وأحمد في مسنده/ ١٩١٩٨، و١٩١٩٩، والبيهقي في سننه/ ٦٦١٣، وشعب الإيمان/ ١٠٣٣٧.

لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾ الصافات: ١١٣.

كذلك فإن الله عزّ وجل إستثنى الظالمين من ذرية إبراهيم من العهد مع الله، حين دعا لذريته أن تكون أئمة للناس، كما جعله الله إماماً لهم: ﴿۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ البقرة: ١٢٤.

وهذا الإستثناء الرباني من وراثة الأنبياء دليلٌ على أن الصلاح لا يرثه إلا الصالح ودليل على ذلك أن نسل الأنبياء مفطورون على الصلاح والظلم، شأنهم شأن جميع البشر، غير أن إرادة الله الحكيمة تصوغ من تشاء من ذريتهم صالحين أو طالحين، بظلم منهم، واستعداد فطري موروث لهذا الظلم.

ومن إستثناءات الوراثة: (والدا ابراهيم – خليل الرحمن، ومحمد – حبيب الله)، وهما أكرم الخلق على الله (عليهما الصلاة والسلام)، كان أبواهما كافرين، ولم يلدا إلا أصلح الناس وأطهرهم.

وحين سأل أحد الصحابة عن مصير والده بعد موته، وكان مشركاً في النار، أشفق الرسول الرحيم عن مفاجأته بأنه في النار، فواساه بقوله (ﷺ): (أبي وأبوك في النار)[٤٢].

ثانياً: الاستثناء من أثر البيئة في السلوك:

استثناء بعض الأزواج والأولاد من عوامل الوراثة والبيئة الصالحة للأسرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ التغابن: ١٤.

إستثناء الله امرأة نوح وامرأة لوط من آثار العوامل البيئية وهي أسرة الأنبياء الصالحين: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ التحريم: ١٠، فشذّت هاتان المرأتان عن بيئة النبوة الصالحة، لأمر قدّره الله، وهو أعلم به، من غير ظلم لهما، إذ أنهما مسؤولتان عن هذا الانحراف إلى الكفر من الإيمان ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ الحج: ١٠.

إستثناء الله عزّ وجل امرأة فرعون (آسيا)، ومريم بنت عمران، من بيئة الفساد إلى أن تكونا من فضليات النساء في الدارين: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ

[٤٢] أخرجه أحمد/ ١٩٦٩٧.

﴿ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ ﴾ التحريم: ١١.

ومن إستثناءات الله عزّ وجل في إرادته الحكيمة في الهيمنة على الكون، **استثناؤه أبا طالب من بيئة النبوة الصالحة إلى الموت كافراً**، رغم تأثره ببيئة النبوة الكريمة وتأييده ابن أخيه رسول الله، في دعوته، وتحمله الأهوال في حمايته والدفاع عنه، سنتين في المجاعة في شعب أبي طالب، وما قبله وما بعده، حتى إذا حضرته الوفاة توسّل به محمد (ﷺ) أن ينطق بالشهادة، فاعتذر، بسبب العرف الجاهلي أن الكبير لا يخضع لقول الصغير!، وأنشد:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية ديـــنا

لولا الملامة أو حذاري سبّــة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسّد في التراب دفينا

فمات على الكفر، وحزن عليه رسول الله كثيراً، إذ فتّ في عضده موته وموت زوجه خديجة في مدة متقاربة: لقد آمن بقلبه، ولم يُعلن بلسانه.

الخاتمة:

إن توجيه السلوك الإنساني أمر خطير، حيرّ علماء النفس والمربين والاجتماع، في عمر التاريخ، ونظمه الإسلام وأحكم تنظيمه، فصاغ خير أمة أخرجت بسلوكها، وكان سيد الأنبياء محمد (ﷺ) قرآناً يمشي على قدمين، وصفه ربه ومربيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ ﴾ القلم: ٤، إذ جمع خلق جميع الأنبياء فطرة وقدوةً بهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ الأنعام: ٩٠، وأمرَ المسلمون جميعاً أن يتأسّوا به، فقال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾ الأحزاب: ٢١.

لذا كان التوجيه الإلهي في السلوك معجزاً في عمر التاريخ.

لقد بدأت الكتاب ببيان: (مفاهيم المعجزة والتفسير العلمي والإعجاز)، ثم انتقلت إلى أنواع الإعجاز في مجالاته القرآنية والنبوية في كبريات الخلق الثلاث: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ ﴾ غافر: ٥٧، وسائر أنواع الإعجاز في عالم الإنسان والحيوان والنبات والتاريخ والآثار والاجتماع والاقتصاد والقصص والغيب، والعدد، والإعجاز في السيرة النبوية الكريمة.

ثم انتقلت إلى بيان الإعجاز القرآني والنبوي في آثاره في محاور الإنسان الفطرية الخمسة (الروح والعقل والنفس والقلب والجسد)، في توجيه السلوك الإنساني، مع مقارنات بالكتاب المقدس. وإن هذه المحاور تتجاوب جميعها فطرياً مع طبيعة الهدي الإلهي الذي نتقبله تلقائياً، ويسمو بها إلى الكمال، من غير معارضته ولا إكراه عليه!

ولقد ذكرت إلى جوار الإعجاز القرآني في توجيه الإنسان – محاوره الخمسة – توجيه الكتاب المقدس الذي يهوي بالإنسان إلى الحضيض من خلال الخطيئة الوراثية لآدم وحواء (عليهما السلام)، التي تجبر الإنسان على المعصية، ويكفيه الاقتصار على مجرّد الإيمان أن يعمل ما يشاء من قتل وزنى،... ودللت على ذلك بنصوصه الصريحة.

ولقد فصلنا القول في مراحل خلق الإنسان فطرةً، جنيناً في رحم المرأة، بما يتجاوب مع العلم، خطوة خطوة، وبما يمثل عظمة الإسلام وإعجازه في بيان الحقائق العلمية قبل ١٤٠٠ عام، ولم تعرف أكثرها إلا في القرن العشرين، ثم تواصلنا مع الإنسان في مراحل نموه بعد الوضع، وعنينا بحاجات الجسد الفطرية، وتلبية الإسلام لها في مجالاتها الأربعة: (النظافة، والغذاء، والقوة والرياضة، والطب – الوقاية والعلاج)، مقارنة بالكتاب المقدس، مع الاستشهاد بالنصوص الصريحة والغزيرة.

ثم انتقلت إلى الإعجاز في أثر العوامل الوراثية في توجية السلوك، بنوعيها الخاصة بالنوع الإنساني عموماً، والخاصة بالفروق الفردية، وتطابق العلم مع الإسلام قرآناً وحديثاً.

ولكل من أثر الوالدين نصوصه الصريحة في الكتاب والسنة، على الأولاد بنوعي الفطرة النوعية والفروق الفردية. وقمة هذا الأثر الوراثي نسب المصطفى (ﷺ) الذي ينتهي بابراهيم (عليه السلام)، والذي يباهي به (ﷺ) في أثر الوراثة فيه والمتمثلة في (١٨) نبياً، تتميز فطرتهم جميعاً على سائر البشر: (أني خيار من خيار من خيار) صدق رسول الله (ﷺ).

أما أبرز أثر للسلوك السيئ في الوراثة فهو إغراق قوم نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ [وهذا أثر البيئة]، ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ نوح: ٢٧، [وهذا أثر الوراثة المؤكد بأسلوب الحصر هذا، من غير إستثناء].

ثم انتقلت إلى الإعجاز القرآني والنبوي في توجيه البيئة للسلوك، إذ لها أثرها البالغ بأنواعها التربوية والإعلامية والدينية، وهي أخطر البيئات تأثيراً في السلوك، في حالة انحرافها عن فطرة الإنسان إلى الهوى والمصالح التي تحكم العالم: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الجاثية: ٢٣.

بدأت بأثر البيئة الفاسدة في مراحل انحدارها، إذ هي نوعان:

نوع يمكن أن يُمارس فيه الإصلاح والدعوة، ونوع يستحيل فيه الإصلاح، ولا يبقى أمام المسلم إلا الهرب أو الأنزواء أو التضحية بروحه! كما هو الحال في كثير من أرض الإسلام اليوم إزاء العصف اليهودي والاستعمار والطائفية التي تجثم على صدور الكثيرين، وضحاياها الأرواح والدماء والأعراض، وكرامة الإنسان!.

وشرحنا مجالات الدعوة في الإصلاح، تجاوباً مع الفطرة والمنطق والعقل، هذا وإن استمرار آثار البيئة السيئة على الأفراد والمجتمع يؤدي تدريجاً إلى الإنهيار في السلوك بمراحل متتابعة: الترقيع والتفتيت، ثم الانسلاخ، لا سمح الله!

أما أثر البيئة الصالحة في السلوك، فيخضع إلى عوامل أربعة، وأساسها: (مصدر الهدي الإلهي، والكتاب وقدسيته، وطبيعة الهدى الإلهي الفطري، وجزاؤه عزّ وجل بالثواب والعقاب، والسيرة النبوية التي تمثل خلق الأنبياء مجتمعين في سلوك المصطفى من خلال اقتدائه بهم).

ثم انتقلت إلى الإعجاز في أثر الإرادة الإلهية الحكيمة المهيمنة على الكون: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ الأعراف: ٥٤، الخَلْق: فطريّ، والأمر: هو هدى الله الذي يأمرنا بالالتزام به ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾ الروم: ٤.

ثم شرحت الإعجاز في السلوك بين إرادة الله الخالق وإرادة الإنسان.

أما الإعجاز في هدى الله، فالكون كله يسبح بحمده، ويخضع لحكمه، وما من صغيرة في الكون إلا يعلمها، وهي في كتاب مبين، والله تعالى هو المهيمن بعلمه وقدرته على الكون، ومنه الإنسان، هيمنة كلها عدل: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ النحل: ٣٦.

ومن الضلالة ثمرة الذنوب والمعاصي، وهي: (الانحراف عن الفطرة، وعن الهدي الإلهي الذي يتجاوب معها ويسمو بها: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ﴾ الأنعام: ٦.

أما الإعجاز في هداية الله، فبيده الخلق والأمر: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ الأحزاب: ٤، وهداية الله وضلاله يتجاوب مع إرادة الإنسان: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ التوبة: ١١٥.

وإن القرآن سرّ هدايتنا، والانحراف عنه إلى الهوى سرّ شقائنا: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ الأنبياء: ١٠، أما السيرة النبوية فتفصيل نظري وعملي سلوكي، وأسباب هداية الله لنا هي: (الإيمان الفطري فينا، وحرصنا على رضوان الله، وذكر الله والتوكل عليه، والجهاد في سبيله)، هذه وسائل الهداية الإلهية لنا.

أما الذي لا يستحق الهداية، فهو: (المرتد عن الإيمان الفطري إلى الكفر، والفاسق والكافر والخائن والظالم والكاذب المنكر للقرآن، والأصم الأعمى والمتكبر الطاغية، المفضل للدنيا على الآخرة).

أما الإعجاز في إستثناء القرآن من أثر الوراثة والبيئة في إرادة الله المهيمنة على الكون، ولا سيما الإنسان، فيتمثل في الوراثة بنسل الأنبياء، فيهم الصالح، وفيهم الطالح، وبنسل الآباء الكفار للأنبياء، كوالد ابراهيم ووالد محمد (عليهما الصلاة والسلام). كما تتمثل في البيئة بعداوة بعض الأزواج والأولاد، وفي إستثناء امرأة نوح ولوط، وإستثناء امرأة فرعون ومريم، وإستثناء أبي طالب من بيئة الرسالة الكريمة، وغيرها كثير.

أهم المصادر والمراجع

أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، الإمام البيضاوي، بيروت، دار الجيل، بدون تاريخ.

البصائر: الفيروز آبادي، محب الدين أبو طاهر، محمد بن يعقوب الشافعي.

تاج العروس من جواهر القاموس: الزبيدي ١٠ ج، المطبعة الخيرية، القاهرة١٣٠٦هـ.

تاريخ دمشق: ابن عساكر، أبو محمد، قاسم بن علي بن الحسن ت: ٦٠٠هـ.

الترغيب والترهيب المنذري أبو أحمد (١٨٥-٦٥٦هـ) دار الكتب العلمية ج٤/ط١ بيروت ١٤١٧هـ.

تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مكتبة الملاح للطبع والنشر، بدون تاريخ.

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ٤م، ١٨٩١، دار الفكر، لبنان/ ٩٨٩١، دار المعرفة.

التفسير الكبير، المسمى: مفاتيح الغيب، الإمام الرازي — ٦١م، ٢٣ج، دار احياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

جامع البيان في تأويل آي القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر، وحققه د. بشار عوّاد معروف وعصام فارس الحرستاني ط:١، مؤسسة الرسالة (١٤١٥هـ-١٩٩٤م).

الجامع الصحيح: الإمام البخاري، تحقيق أحمد شاكر، المطبعة السلفية (٩ ج) في ٣م، بيروت، دار الجيل، بدون تاريخ.

الجامع لأحكام القرآن، القرطبي الإمام أبو عبيد الله محمد بن أحمد الأنصاري، ٢٠ج في عشرة مجلدات، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان١٤١٨هـ - ١٩٩٨م،.

الدرّ المنثور في التفسير المأثور: الإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

ديوان الشافعي، الإمام محمد إدريس أبو عبد الله (١٥٠- ٢٠٤هـ)، د.مجاهد مصطفى، جامعة بغداد.

رسائل النور: الإمام بديع الزمان النورسي، المثنوي: ط١: شركة النسل للطباعة، نشر دار سوزلر للنشر، استنبول١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود شكري الآلوسي، في ٥١م، ط٤، دار الطباعة الميرية، بيروت، القاهرة ٥٨٩١.

سلسلة الأحاديث الصحيحة: الألباني، محمد ناصر الدين، المكتب الإسلامي، ط١، ٢م، بيروت ٢٩٣١هـ.

سنن ابن ماجه: الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، جزءان، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار الريان للتراث، ومطبعة دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.

سنن أبي داود: الحافظ سليمان أبو داود الأشعث السجستاني، ٥ج، إعداد وتحقيق عزت عبيد الدعاس، ط١: مطبعة مصر، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٨٨٣١هـ، ٠٦٩١.

سنن الترمذي، مع تحفة الإحوذي، بشرح الترمذي: الإمام عيسى محمد بن عيسى بن سوره، ٥ج، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، وتحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

سنن الدارقطني، الإمام الدارقطني، علي بن عمر البغدادي (ت٣٨٥هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ.

سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن النيسابوري السمرقندي، (ت/ ١١٣هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ

السنن الكبرى، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي(ت٤٥٨هـ)، ط١، حيدر آباد، الدكن، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة ١٤١٤هـ.

سنن النسائي: شرح السيوطي، النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، (٨ج) في (٤م)، دار الفكر، بيروت ١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م.

السيرة النبوية: ابن هاشم، عبد الملك الحميري، دار الجيل، بيروت: ١١٤١هـ.

السيرة النبوية: د. عابد الهاشمي، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، اليمن ط١، ٢٠٠٠م، ط٢، ٢٠٠١م.

صحيح ابن حبان: أحمد بن حبان، أبو حاتم التميمي البستي السجستاني، ٨١ مجلداً، تحقيق شعيب ارنؤوطي، ط:٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

صحيح البخاري، الإمام محمد بن اسماعيل، أبو عبد الله (ت/٦٥٢هـ)، دار القلم، بيروت ٧٨٩١م.

صحيح مسلم: الإمام أبو الحسن بن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ٥١ج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط:٢، طبعة دار التراث العربي، بيروت، ٦٧٩١.

الطبقات الكبرى: ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري ت: ٠٣٢هـ، بيروت، دار صادر: ٧٥٩١.

فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري: الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ١ج، ط:٢، ، دار الريان للتراث، القاهرة ٩٠٤١هـ - ٨٨٩١م.

فيض القدير: شرح الجامع الصغير، المناوي، محمد عبد الرؤوف، القاهرة، المكتبة التجارية ٨٣٩١.

القاموس المحيط: الفيروزي آبادي، محب الدين، أبو طاهر، محمد بن يعقوب الشافعي، ط٣: نشر مؤسسة الرسالة، بيروت١٤١٣هـ - ٣٩٩١م.

القرآن الكريم.

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل: الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد، ٣م، ط٢، دار المصحف، القاهرة ٧٩٩١.

لسان العرب: ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل، ٨١ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٨٨٩١م،.

المستدرك على الصحيحين: الحاكم أبو عبد الله بن عبد الله النيسابوري، مطبعة الهند، دار الكتاب العربي، بيروت.

مسند الإمام أحمد: أحمد بن حنبل ت (١٤٢) ٦ج، المطبعة السلفية، ط٢: دار الفكر، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان١٤١٣هـ - ٢٩٩١م.

المسند: أبو يعلى، أحمد بن علي التميمي الموصلي.

المسند: أبوبكر، محمد بن عبد الله بن إبراهيم ت: ٤٥٣هـ.

معالم التنزيل بهامش تفسير الخازن) المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل: البغوي، أبو محمد الحسن مسعود الغراء، ط٢، ، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ٥٩٩١م.

معجم الزوائد ومنبع القوائد: الهيثمي، الحافظ على بن أبي بكر، ط٢: بيروت، دار الكتاب ٧٦٩١م.

المعجم الكبير: الطبراني، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد، عمرّ مئة سنة، ٥٢ج، حققه وخرّج أحاديثه الشيخ حمدي عبد المجيد السلفي – عراقي، معاصر، الدار العربية للطباعة، بغداد: ٣٩٩١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ٨٧٩١م – ٤١٤١هـ.

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، بدون تاريخ.

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة: يوسف الحاج أحمد.

الموطأ: الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٦٠٤١هـ.